# رحلة دومينجو باديا إلى منطقة الحجاز ( القرن التاسع عشر )

عبد الحفيظ حمان *

عرفت البلاد الإسلامية -منذ فترة العصور الحديثة- زيارة العديد من الرحالة من مختلف الدول الأوروبية؛ قصد تحقيق أهداف محددة ومختلفة في آن واحد، ما بين التبشير والتجسّس والبحث الدقيق في أحوال المجتمعات الإسلامية التي ظلت عبر عصور طويلة مشعل الحضارة وقبلة كل راغب في التزود بالعلم والمعرفة. وكانت الجزيرة العربية - وبالأخص منطقة الحجاز- من الأقطار الإسلامية التي استقطبت أنظار هؤلاء الرحالة من أجل سبر أغوارها وتجميع معلومات تهم بالأساس الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

وإلى حدود القرن الثامن عشر لم تكن أوروبا قد وجهت اهتمامها إلى الجزيرة العربية، ولم تتوافر لديها معلومات حول منطقة الحجاز إلا من خلال كتب الجغرافيين المسلمين كالإدريسي وأبي الفدا، وكذلك الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة، أو من خلال كتب بعض الرحالة الأوربيين الذين نذكر منهم النمساوي فيلد (Wild) الذي نشر سنة 1604م كتاباً حول مكة والمدينة لم يكن ذا أهمية تذكر، كما نجد الكتاب الذي ألفه جوزيف بِيتس (Joseph Pitts). غير أنه من بين هذه التآليف يظل كتاب فارطيما (Varthema) الأكثر أهمية من ناحية شموليته؛ فقد تجاوز منطقة الحجاز ليكشف للجغرافيين والمهتمين معطيات جديدة تهم ميدان الجغرافية الطبيعية لبعض مناطق الجزيرة العربية(1). وعلاوة على هذه الرحلات، نجد بعض الرحالة الأوربيين قاموا بزيارة الجزيرة العربية وتركوا كتباً حول المناطق التي زاروها(2).

وبذلك ظلت أوروبا طيلة القرن الثامن عشر لا تتوفر إلاَّ على معلومات بسيطة وشذرات قليلة حول الجزيرة العربية. غير أنَّه بحلول القرن التاسع عشر انصب اهتمام أوروبا على هذه المنطقة بعد ظهور المذهب الوهابي الذي أحدث رجّة وتغييرات على المستوى الديني والسياسي، وواكبته أحداث عسكرية كان لها صدى في المجتمعات الأوروبية ودولها. من هنا أخذت منطقة الحجاز تلفت أنظار الرحالة الأوربيين؛ ليتوافدوا عليها ويقوموا بجمع معلومات تهم جميع المستويات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وفي طليعة هؤلاء الرحالة نجد أكثرهم أهمية الرحالة الإسباني دومينجو باديا إي ليبليش (Domingo Badia y Leblich)، الذي دخل منطقة الحجاز عبر مدينة جدة تحت اسم: علي باي العباسي.

**التعريف بالرحالة ومصدر رحلته:**

تكاد تنعدم المعلومات حول هذا الرحالة وحياته، إلا ما كان من شذرات قليلة متناثرة هنا وهناك في بعض المراجع، وبالأخص الأجنبية منها(3).

فقد ولد دومينجو باديا في برشلونة سنة 1766م، من أم ذات أصل بلجيكي وأبٍ كان يعمل أميناً في الجهاز المالي للمدينة، وكان (بَادْيا) ملمًّا بقسط وافر من المعرفة أهَّلَهُ لكي يعين موظفاً بالإدارة المالية في غرناطة وهو في الرابعة عشرة من عمره(4)، وبعد بلوغه سنّ التاسعة عشرة خلف والده في وظيفته التي كان يشغلها في البيرة في مقاطعة ألمريا (Alméria).

وبعد زواجه نقل إلى قرطبة؛ ليشغل مدير الاحتكارات الملكية للتبغ، وكان لهذه المدينة تأثيرٍ كبير عليه دفعه إلى التأمل وحب المعرفة للقيام برحلات استكشافية كانت موجهة أساساً نحو البلدان الإسلامية.

كانت طموحات دومينجو باديا ورغبته في إنجاح مشروعه حافزاً له في تعلم الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والتاريخ الطبيعي، وكل العلوم الضرورية التي يمكن أن تساعده في رحلته، ويستفيد منها خلال جمع المعلومات والقيام بالملاحظات، وإلى جانب ذلك ركز اهتمامه على تعلم اللغات الشرقية، وخصوصاً العربية.

وفي 7 أبريل 1801م قدم باديا مذكرة إلى الحكومة الإسبانية تحمل مخططاً لرحلته الاستكشافية والعلمية والسياسية، وأشار في هذه المذكرة إلى أن رحلته لا يمكن أن تكلل بالنجاح في البلدان الإسلامية وأنه لا يستطيع تخطي الصعوبات والعقبات التي قد تعترض طريقه عند الشعوب الإسلامية إلا إذا تقدم لديهم في صورة مسلم، يحمل اسماً إسلاميًّا، وينحدرٍ من عائلة مسلمة تنتمي إلى شجرة الأشراف: (وبناء على ذلك -يسترسل باديا موضحاً في مذكرته- ينبغي أن تكون ذا أصول إسلامية حتى تحوز على الحظوة والمكانة لدى المسلم الآخر... ومن أجل مشروع كهذا، لا ينبغي أن تلبس الزي الإسلامي، وترسل لحيتك، وتتكلم العربية، وتعتنق دين مُحمَّد فقط؛ بل يجب بالأساس أن تثبت أنك عربي المولد والمنشأ، وهذا هو المفتاح لكل أبواب إفريقيا)(5).

وبغية تنفيذ ذلك قرر دومينجو باديا تقمص شخصية أمير عربي من أصل سوري ولد بمدينة حلب، وينتمي إلى سلالة العباسيين، ولقب نفسه باسم: علي باي العباسي، الذي سيتجول تحت ستاره داخل الأقطار الإسلامية.

تحت هذا الغطاء العلمي والسياسي، وافق الملك الإسباني شارل الرابع (Charles IV) والحكومة الإسبانية على مشروع الرحلة وتمويلها، ولكي يستكمل (باديا) إجراءاته سافر إلى لندن لصنع ما يحتاج إليه من وسائل في رحلته واقتنائها، كما قام في العاصمة الإنجليزية بعملية الختان عند طبيب يهودي(6).

وبعد مغادرته إنجلترا زار العاصمة الفرنسية باريس؛ حيث تقدم إلى المعهد العلمي ووزارة الخارجية مختفياً في زيِّه الإسلامي ومقدماً نفسه تحت اسم علي باي. وفي المعهد

وضع مشاريعه الاستشكافية العلمية واستطاع حيازة الثقة حتى من طرف وزير العلاقات الخارجية طاليران (Talleyrand).

كانت العاصمة الإسبانية مدريد هي محطته الأخيرة قبل مغادرته القارة الأوروبية ليبدأ رحلته سنة 1803م التي قادته في البداية إلى المغرب، ومنه سافر إلى طرابلس فقبرص فمصر، ثُمَّ إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج، ففلسطين فسوريا فتركيا؛ ليعود أخيراً إلى وطنه في مايو 1808م. وقد توفي سنة 1818م ودفن في حصن البلقاء (الجنوب الشرقي للأردن حالياً)، وكان بصدد إنجاز رحلة استكشافية ثانية إلى بلدان المشرق الإسلامي لحساب فرنسا.

وقد ترك عن رحلته الأولى كتاباً بعنوان (رحلات علي باي العباسي إلى أفريقيا وآسيا خلال الأعوام 1803-1807)، صدر لأول مرة في باريس سنة 1814م في ثلاثة أجزاء باللغة الفرنسية، وأصدر معه ملحقاً يضم خرائط ومجموعة من الرسوم تبلغ ثلاثة وثمانين رسماً(7).

**محتوى الرحلة:**

وإذا رجعنا إلى مضمون رحلة علي باي الخاص بمنطقة الحجاز، وجدنا أن النصيب الذي حظيت به هذه المنطقة في كتاب الرحلة يتجلى في عشرة فصول، ثمانية منها في الجزء الثاني من الكتاب وفصلان في الجزء الثالث.

1- **وصف المرافق الدينية لمكة:**

اهتمّ الفصل السادس عشر من كتاب باديا بكلّ المرافق الدينية الموجودة في بيت الله، والتي تشكل الأماكن الأساسية لأداء مناسك الحج، بداية من الكعبة ومقام إبراهيم ونهاية بالصفا والمروة، وأعطى لها وصفاً دقيقاً من ناحية الموقع والشكل والمقاييس والتفسيرات الدينية المرتبطة بها، كما تطرق للكلام عن أبواب الحرم، وخصوصاً باب السلام، ووصف ساحة الكعبة ومنبر خطبة الجمعة والأعمدة النحاسية والقناديل الموجودة في المسجد، ولم يغفل حتى الحديث عن طيور الحمام التي تملأ سماء الكعبة.

- **الكعبة:** تطرق باديا في معرض حديثه عن الكعبة إلى الوصف الدقيق للمظهر الخارجي والداخلي لها. فعن الوصف الخارجي يقول: (الكعبة أو بيت الله هي عبارة عن صرح رباعي الشكل غير متساو في أضلاعه وزواياه؛ بحيث إن تصميمه يعطي شكل مربع منحرف. غير أن ارتفاع مبناه والنسيج الأسود الذي يغطيه يخفيان هذا التفاوت ويمنحانه هيأة مربع حقيقي)(2/345).

ثم انتقل إلى وصف نوعية الصخور المكونة لبناء الكعبة، كما حاول التدقيق في مقاييس الكعبة من ناحية أضلاعها وارتفاعها واتِّجاهاتها، ثُمَّ تطرق إلى وصف الحجر الأسود ونوعه ومقاييسه غير غافل عن التفسير الديني المرتبط بهذا الحجر.

وبخصوص المظهر الداخلي للكعبة، تطرق إلى الوصف الدقيق لها فقال: (في الجزء الداخلي للكعبة، نجد قاعة واحدة، في وسطها عمودان قطر كلّ منهما قدمان (ما يناهز 65 سنتم) يحملان السقف الذي لم أستطع معاينة شكله؛ لأنه مغطى بنسيج رفيع يغطي الجدران والأعمدة من فوقها إلى علوّ خمسة أقدام من الأرض)، ويسترسل في وصف الكسوة الداخلية للكعبة قائلاً: (هذا النسيج هو من الحرير الوردي مرصع بورود منسوجة من الفضة ومبطّن بنسيج آخر أبيض، ولا يمكن تبديل هذا النسيج إلا بعد وصول خليفة عثماني جديد إلى الحكم، وهو الذي يقوم بتغييره وإرسال نسيج جديد بديل له)(2/349).

أما عن الكسوة الخارجية للكعبة، فيقول باديا: (إن بيت الله مغطى بأكمله من الخارج بنسيج أسود يسمى (ثوب الكعبة)، معلق في السطح ومثبت في الأسفل بواسطة حبال مربوطة في خواتم نحاسية موضوعة حول القاعدة، وفي كلّ سنة يجدد هذا الثوب؛ إذ يؤتى به من القاهرة، ومن هذه المدينة كذلك يرسل الستار الرفيع المطرز بالذهب والفضة والمخصص لغطاء باب الكعبة، وعند ثلثي ارتفاع ثوب الكعبة نجد رباطاً، يدعى الحزام مطرزاً بالذهب، وعليه كتابات تتكرر في كلّ الجوانب الأربعة، ويتم تغيير الثوب الجديد في كلّ سنة، وأثناء ذلك لا يرسل كلياً؛ بل يرفع أسفله في احتفال موكبي، ويظل معلقاً بالسطح)(2/351).

- **مقام إبراهيم:** ثُمَّ ينتقل الرحالة باديا إلى وصف مقام إبراهيم وموضعه وشكله ومقاييسه، فيقول في ذلك: (مقام إبراهيم هو عبارة عن صورة مهد متوازي الأضلاع أمام وسط الحائط الموجود فيه باب الكعبة، ويبعد عنه بنحو أربعة وثلاثين قدماً (ما يعادل 11 متراً و22 سنتمتر). طوله اثنا عشر قدماً وتسع بوصات (ما يعادل 4 أمتار و20 سنتم)، وعرضه سبعة أقدام وثمان بوصات (ما يعادل مترين و52 سنتم)، وسقفه مدعم بستة أعمدة تكاد تفوق قامة الرجل)(2/355).

- **بئر زمزم:** أما بئر زمزم، فقد وصف شكله وكيفية جلب الماء من البئر، وحدد موقعه، وبصفة عامة رسم لنا لوحة عن شكله في مطلع القرن التاسع عشر، فقال فيها: (يقع بئر زمزم على بعد خمسين قدماً ونصف القدم (ما يعادل: 16 متراً و67 سنتم) من الجهة الشرقية للحجر الأسود. قطره يناهز سبعة أقدام وثمان بوصات وعمقه ستة وخمسون قدماً حتى سطح الماء (ما يعادل: 18 متراً و48 سنتم)، مثابته من الرخام الأبيض الرفيع الجيد) (2/35).

- **الصفا والمروة:** وعند حديثه عن الصفا والمروة، يحدد موقع كلّ منها ويصف الشكل الذي كانت عليه في هذه الفترة، فعن الصفا يقول: (تقع الصفا في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد أمام الباب الذي يحمل الاسم نفسه، وفي قدم الجبل المسمى جبل أبو قبيس... وعند نهاية طريق قصيرة وواسعة تصل إلى تل الصفا يوجد رواق مكون من ثلاثة أقواس مدعم بثلاثة أعمدة ضخمة، نصعد إليه عبر أربع درجات، وهو الموضع الذي يرتل فيه الحاج الدعوات الخاصة بالصفا)(2/355).

أما المروة، فيقول عنها: (تبعد شيئاً ما عن المسجد من الجهة الشمالية، وعند نهاية الطريق التي تصل إلى المروة، يوجد رصيف يبلغ خمسة وعشرين إلى ثلاثين قدماً مربعاً (ما يعادل 8 أمتار) يحيط به من ثلاث جهات حائط كبير، وهو الموضع الذي يقرأ فيه الحاج دعوات المروة)(2/373).

وكما ذكرنا سالفاً، فإن الرحالة باديا وصف جميع المرافق الدينية الموجودة في الحرم المكي. وفي صفحة 371 من كتابه نجد جرداً كاملاً لأبواب الحرم من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية؛ غير أنه خص بالحديث والوصف باب السلام، فوصف شكله وحدد موقعه ومقاييسه (2/361).

**2- الحياة الدينية في مكة:**

تُعدّ الصفحات التي خصّصها باديا في كتابه للحديث عن مناسك الحج في مكة أكثر الصفحات إثارة؛ فقد وصف جميع المناسك انطلاقاً من الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، ومروراً بوصف الطريق إلى منى ومزدلفة ومناسك الحج في عرفات ورجم الشيطان.

ومن هذه الصفحات نستخرج موضوعين تطرق لهما الرحالة وركز عليهما في متن رحلته، يعبر الأول عن الثقة التي اكتسبها باديا لدى الأوساط الحاكمة في مكة مكنته من الولوج إلى داخل الكعبة والمشاركة في تطهيرها وإحرامها، ويعبر الموضوع الثاني عن مشاعره وهو يؤدّي مناسك الحج في عرفات؛ ونظراً لأهمية الموضوعين ندرجهما بتفاصيلهما كما عبر عنهما باديا:

فعن غسل الكعبة يرسم لنا اللوحة الآتية بقوله: (في يوم الاثنين -29 يناير 1807م/ 20 من شهر ذي القعدة 1221هـ- تمّ غسل الكعبة حسب المراسيم التالية: بعد ساعتين من شروق الشمس وصل الشريف (غالب) إلى الكعبة مصحوباً بثلاثين شخصية واثني عشر من الحراس، قسم من الزنوج وقسم من العرب، وكان باب الكعبة قد فتح من قبل، وأحاط به حشد كبير من الناس؛ إلا أن السلالم لم يتم وضعها بعد).

وبعد أن تسلق الشريف أكتاف البعض ورؤوس الآخرين، ولج إلى داخل الكعبة مع رؤساء القبائل الرئيسي؛ وأراد الآخرون القيام بالشيء نفسه؛ إلا- أن الحراس الزنوج منعوهم من الدخول بضربهم بالعصي والقصب. أما أنا، فقد مكثت بعيداً عن الباب حتى أتجنب هذا الحشد الهائل. غير أن رئيس الزمازمة، بعدما تلقى أوامر الشريف، أشار إلي لكي أتقدم، ولكن كيف أستطيع اختراق آلاف الأشخاص الموجودين أمامي؟

كل الزمازمة في مكة تقدموا بقربهم المملوءة وأخذوا يمررونها من يد إلى أخرى حتى تصل إلى حراس باب الكعبة الزنوج، كما فعلوا الشيء نفسه بعدد كبير من المكانس الصغيرة المكونة من أوراق النخيل.

فأخذ الزنوج يلقون الماء على أرض الحجرة المبلطة بالرخام وكذلك ماء الورد، فيسيل هذا الماء من ثقب موجود في عتبة الباب، فيجمعه المؤمنون بكلّ لهفة؛ ونظراً لعدم كفاية الماء أمام هذه اللهفة الكبيرة، بالإضافة إلى أن الحشود الأخرى كانت ترفع صوتها طالبة قدراً من هذا الماء للشرب أو الاستحمام، فقد أخذ الحراس الزنوج يلقون الماء بوفرة على هذه الجموع إما بواسطة الأقداح أو بأيديهم، وأوصلوا إليّ جرّة صغيرة وقدحاً، فشربت ما استطعت وأفرغت الباقي على بدني؛ لأن هذا الماء -بالرغم من أنه وسخ جداً- فيه نعمة ربانية، بالإضافة إلى أنه معطر بماء الورد. بعد ذلك بذلت جهداً للاقتراب، فحملني عدة أشخاص على رؤوسهم حتى وصلت إلى الباب، فساعدني الحراس الزنوج على الدخول.

في الداخل وجدت الشريف (غالب) يكنس بنفسه الحجرة، وفور دخولي خلع لي الحراس عباءتي وقدموا لي رزمة من المكانس الصغيرة؛ فأخذت بعضها في كلّ يد، في اللحظة نفسها ألقوا كثيراً من الماء على البلاط وبدأت أكنس الأرض بكلّ إيمان بالرغم من أنها كانت نظيفة تلمع كالمرآة. وأثناء هذه العملية كان الشريف يؤدّي الصلاة بعد انتهائه من الكنس وتطييب الكعبة.

بعد ذلك، سلموا لي طاساً فضيًّا مملوءاً بعجينة مصنوعة بنُشارة خشب الصندل ومدلكة بعطر الورد، نشرت هذه العجينة على القسم الأسفل من الحائط المغشى بالرخام، ثمَّ أعطوا لي بعد ذلك قطعة من خشب العود الذي أحرقته في موقد كبير حتى تتعطر الحجرة، بعدها ناداني الشريف بـ(خادم بيت الله الحرام)، وتلقيت التهاني من كلّ الحاضرين (2/316 - 318).

أما عن النقطة الثانية التي يتحدث فيها عن مناسك الحج بجبل عرفات، فقد ترك الحماسة تغزوه في هذا الوصف وفاضت مشاعره وتجاوز الدور الذي يمثله، فوصف هذه المناسك بقوله: (لا يمكن أن تتصور فكرة المشهد العظيم الذي يقدمه الحج للمسلمين إلاّ على جبل عرفات: جماهير غفيرة من كلّ الشعوب والأمم والألوان، جاءوا من أقصى أنحاء المعمورة متجاوزين آلاف المخاطر والمتاعب والمعاناة التي لا حد لها؛ لكي يعبدوا الله الواحد جميعاً، سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشي أو الزنجي من غينيا، والهندي والفارسي يتآخيان مع البربري والمغربي، يتلاقَوْنَ جميعاً كأنهم إخوة، أو أفراد من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتتحدث أغلبيتهم -أو يتفاهمون على الأقل- باللغة نفسها، وهي اللغة العربية المقدسة، وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهداً أكثر روعة، وأقوى تأثيراً، وأسمى جلالاً... وهنا لا توجد طبقة وسيطة بين العبد وخالقه ولا طبقة متميزة عن الأخرى، الناس جميعاً سواسية أمام الله، والكل يدرك أن عملهم هو الذي يقربهم إلى الخالق أو يبعدهم عنه، ولن تستطيع أيّ قوة -مهما كانت- أن تغير هذه السنّة الإلهيَّة) (2/330-332).

**التجديد لدى الحركة الوهابية:** قبل إنهاء هذا العنصر الخاص بالحياة الدينية في مكة، تجدر الإشارة إلى أن باديا قد تعرض في كتابه للحديث عن الوهابيين ومبادئهم الدينية،

والحملات العسكرية التي قاموا بها، والإصلاحات الدينية التي جاءوا بها؛ معتمداً في ذلك -كما صرح بنفسه- على مصدرين هما: أولاً الرواية الشفوية من طرف بعض الوهابيين أنفسهم ومن بعض سكان البلاد، وثانياً الملاحظات التي أدرجها من خلال الأحداث التي كان شاهداً عليها.

فعند باديا أن تعاليم الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب وأتباعه قضت على الزنادقة والسحرة والمهرجانات الدينية التي كانت تسهم مادياً في رفاهية سكان مكة والمدينة، والوهابيون لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب؛ بل هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفاً لهم، ويمنعون أيضا تقديس شخص النبي (2/444).

وعندما كان يؤدّي مناسك الحج في مكة، صادف مجيء طائفة من الوهابيين للقيام بفريضة الحج، وكانوا حليقي الرؤوس، شبه عراة، مدجَّجين بالسلاح، فأحدثوا الرعب في السكان، ولكن ما إن أتيحت الفرصة لباديا كي يتصل بهم، ويتعرف عليهم، حتى اكتشف فيهم مجموعة من الفضائل والصفات الطيبة أعظم ممَّا وجده عند بقية العرب، ونتركه يسجل ذلك بنفسه قائلاً: (لا- يسرقون أبداً، سواء بالقوة أو عن طريق الخديعة، أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كلّ ألوان المعاناة، ويتبعون قادتهم ولو إلى آخر الدنيا، لا يتراجعون أمام أي خطر أو صعوبة)(2/324).

ولكنه يرى -بعد أن تأمل مواقفهم وعقيدتهم جيداً- أن مثلهم الأعلى الديني والاجتماعي سوف يجد معارضة قوية تحول دون انتشاره في المناطق الأكثر غنى وتقدماً؛ لتشدده وصرامته واصطدامه مع العادات والتقاليد التي دأبت عليها الشعوب الإسلامية الأخرى، ويقول في هذا الصدد ما يلي: (إذا لم يخفف الوهابيون قليلاً من تشدُّدهم في المبادئ التي يؤمنون بها، فيبدو لي أن من المستحيل أن تنتشر الوهابية في بلاد أخرى أبعد من هذه الصحراء)(2/440).

**المدينة المنورة:**

تظل المدينة المنورة هي المدينة الوحيدة من مدن الحجاز التي لم يتسن لباديا الدخول إليها وزيارتها؛ ذلك بأنه بعد مغادرته مكة، رجع إلى جدة في 3 مارس 1807م. ومن هناك أبحر إلى مدينة ينبع في 30 مارس، وكانت له رغبة أكيدة في زيارة المسجد النبوي بالمدينة، بالرغم من أن الوهابيين -كما جاء في كلامه- كانوا يمنعون الحجاج من القيام بهذه الزيارة، واستطاع أن يتفق مع قافلة تضم حجاجاً أتراكاً ومغاربة لزيارة قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم -، إلا- أنهم في طريقهم إلى المدينة المنورة اعترضهم عدد من الوهابيين ومنعوهم من هذه الزيارة، وأرغموهم على الرجوع إلى مدينة ينبع، وبذلك لم يستطع دومينجو باديا الدخول إلى المدينة المنورة وزيارتها.

**خلاصة واستنتاجات:**

بعد هذا العرض حول الرحلة وصاحبها، يتضح لنا أن رحلة دومينجو باديا/علي باي العباسي تكتسب طابعاً خاصاً بها؛ لكونه رجلاً أوربيا تقمص شخصية أمير عربي مسلم، وذهب في تمثيل هذا الدور إلى أبعد الحدود، سواء من ناحية الشكل أم المضمون، فاختار لنفسه شجرة نسب عربية، وارتدى الزي الشرقي، وأجريت له عمليّة الختان، وتعلم اللغة العربية، وواظب على الشعائر الإسلامية، واجتهد طوال رحلته في أن يظهر في ثوب مسلم تقيّ، ممَّا أهله لأن يزور الأماكن الإسلامية المقدسة، ويقوم بتأدية مناسك الحج ويكسب ثقة جميع الفعاليات الحاكمة، فوصف مدن الحجاز، وقدّم للجمهور الأوروبي لوحة مفصلة لمنطقة الحجاز على مختلف المستويات: الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وإذا رجعنا إلى متن الرحلة، وجدنا أن باديا اعتمد في تجميع هذه المعلومات على مصدر الملاحظة بالأساس، وأحياناً على الرواية الشفوية لبعض الأشخاص. وهذان المصدران هما الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها بعض الرحالة الأوربيين في كتاباتهم في القرن التاسع عشر، ونتيجة لهذه المنهجية كانت هذه الكتابات -في أغلب أطوارها- تفتقد الموضوعية والنزاهة العلمية، إضافة إلى بعض الأخطاء في المعلومات المتعلقة بكثير من النواحي: (التاريخية، الدينية، الاجتماعية...).

إن الموضوعية التاريخية والنزاهة العلمية مفقودتان في هذه المصادر إذا علمنا أن باديا -كغيره من الرحالة الأوربيين- كان يؤلف مصادره ويكتبها؛ ليقدمها للقارئ الأوروبي أوَّلا وقبل كل شيء، وبالتالي يرسم الصورة السائدة نفسها في تلك الفترة: تَقَدُّم الغرب الأوروبي وتفوقه مقابل التخلف الفطري والمزمن للمشرق العربي، وهذه المسألة منعت الرحالة الأوروبيين من معرفة الآخر معرفة موضوعية.

ملاحظة أخرى يمكن تسجيلها؛ عندما نحدد طريقة لبناء المعلومات التي ساقها باديا، وندمجها في وحدة متناسقة ومتكاملة تسهل علينا معرفة المعلومات التي ساقها حول منطقة الحجاز.

فكل المدن التي زارها الرحالة حظيت بتسجيل المعلومات حول مرافقها ووصف معالمها، غير أن النصيب الأوفر حظيت به مكة، وهذا يرجع إلى المكانة الدينية التي تحظى بها؛ إذ كانت كذلك هي المستهدفة من طرف باديا لتأدية مناسك الحج، وما كانت تبثه هذه المدينة آنذاك من فضول في نفوس الأوربيين تجعلهم يتوقون ويجتهدون لزيارتها قصد التعرف عليها وسبر أغوارها، كما أن المدة التي مكثها باديا بمدينة مكة (من 23 يناير 1807م إلى 2 مارس 1807م) كانت أطول من غيرها من المُدَد التي قضاها في المدن الأخرى، وقد وفرت له الوقت لتجميع المعلومات وتسجيل الملاحظات التي شملت جميع المستويات.

ولكن بالرغم من الشطط والمبالغة التي وقع فيها الرحالة باديا في بعض معلوماته وملاحظاته، فإن رحلته لا- تخلو من فوائد، وتظل مصدراً تاريخيًّا حول أوضاع منطقة

الحجاز في بداية القرن التاسع عشر، ولا يمكن دحض كل ما تحتوي عليه ونفيُه.

صحيح، أن باديا في رحلته كان يستهدف إسداء خدمة للجانب الأوروبي، وهذا ما دفع بالبعض إلى الاعتقاد أنه عميل سري لنابليون بونابرت، أرسله لدراسة الحركة الوهابية، وكيفية تسخيرها لخدمة أغراض الإمبراطور الفرنسي في مصر وسوريا؛ ودفع بالبعض الآخر إلى رؤية أن هذه الملاحظات الفلكية التي يقوم بها الرحالة في البحر الأحمر هي لحساب الوزارة البحرية الفرنسية، غير أنه في رحلته إلى الشرق تحرر من الاهتمام الأكبر بالسياسة وخطط المؤامرات التي كلفه بها رئيس الوزراء الإسباني كودوى في المغرب سنة 1803م، وبدأت رحلته تتخذ وجهة جديدة، بحيث أصبح الهدف العلمي منها يجيء في المقدمة، ولم تكن رحلته إلى مكة ذات أغراض سياسية خفية أو أهداف تبشيرية، وإنما كانت تدخل بالأساس في مجال الأنثربولوجيا، فقدم في مصدره لوحة اجتماعية عن منطقة الحجاز والعادات والتقاليد بها، وسلسلة من الأحداث التاريخية وصورة حول الحياة الدينية، وأرفق ذلك برسوم ذات أهمية كبيرة، فقد نسخ للمرة الأولى -وفي دقة متناهية- الآثار الإسلامية في مكة، وإليه يرجع الفضل في أننا نملك أقدم رسم وأدقه لموقع مكة الجغرافي تصويراً باليد(8)، وهو الأول الذي استطاع تحديد المواقع الفلكية لجدة ومكة، وبذلك كان الوصف الذي قدمه لمدن الحجاز ومرافقها -وبالأخص المرافق الدينية في مكة- يعطينا صورة عن وضعيتها على جميع المستويات في مطلع القرن التاسع عشر(9).

وقبل إنهاء هذا العرض تجدر الإشارة إلى أن دومينجو باديا، بعد انتهاء رحلته ورجوعه إلى إسبانيا سنة 1808م واستقراره بفرنسا، حاول القيام برحلة استكشافية أخرى إلى الحج لحساب فرنسا، تحت اسم الحاج عليّ أبو عثمان، وفي 18 يناير 1817م، غادر العاصمة الفرنسية قاصداً دمشق عن طريق البر، غير أنه لم يبلغ مراده؛ لأن المرض اشتد به وتوفي في صحراء الأردن، ودفن على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء في الجنوب الشرقي من الأردن(10).

**********

**الحواشي:**

*) باحث من المغرب.

1- لودوفيكو دي فارطيما (Ludovico di Varthema): إيطالي له رحلات في مصر وسوريا والجزيرة العربية وإيران والهند وإثيوبيا. زار مكة والمدينة ابتداء من سنة 1503م، طبع كتابه في إيطاليا بروما سنة 1510م و1517م، وفي البندقية سنة 1518 و1535 و1563م. ونشرت الترجمة الفرنسية الأولى سنة 1556م، نشرها لويس طونبرال (Luis Temporal) تحت عنوان: Voyages de Loys Bartheme. أما الترجمة الإنجليزية، فظهرت سنة 1576-1577م. (انظر:

R.H. Kieman, L’exploration de l’Arabie depuis les temps anciens

jusqu’à nos jours, Traduit de l’anglais par Ch. Mourey, éd. Payot, Paris, ,1938 p103.)

2- نذكر منهم: جوزيف بيتس (Joseph Pitts) الذي كان أول أنجليزي يزور الحرمين. نشـر كتـابه في القرن الثـامن عشـر تحـت عنـوان: A Faithful Account of the Religion and Manners of the Mahometans. وفي منتصف القرن 17، أرسل ملك الـدانمرك فريـديريك الخامس بعثـة إلي الجزيرة العربية تضم سـبعة أفراد، من بينهم: كارستن نيبور (Karsten Niebuhr). خلف كتاباً تحت عنوان:

Les voyages à travers l’Arabie, نشـر بالألمانية سنة 1772م، وبالفرنسية في أمستردام سنة 1724 و1780م، وبالإنجليزية سنة 1792م. (انظر:

Kieman, ibid, p. 82-83,.117

3- حـول حياته راجع: Garcia de Herros, Quatre voyageurs espagnols à Alexandrie d’Egypte, Alexandrie, 1923; G. Spillmann, Napoléon et l’Islam, Paris, éd. L.A.P, 1969; H. de Castries,) Napoléon et le Maroc (, dans Revue Hebdomadaire, n° 16, 8 avril 1908

4 - هنـاك مراجـع تؤكـد أنـه أنهى دراسـاته في جامعـة بلنسـية (Valencia) . انظر بالخصوص:

p275, op. cit, Spillmann

5 - H. de Castries, op. cit, p4.

6 - يقول في كتـابه عن عمليـة الختـان: (سـمعت كلامـاً يقال للنصارى مفاده أن بعضـهم ممَّن زاروا البلاد الإسـلامية، وسافروا في أمان، تمّ لهم ذلك بفضل ارتدائهم زيّ السـكان؛ ولكني أرى أن هـذا مسـتحيل لو لم تُجْرَ لهم عمليـة الختـان؛ لأن هـذه المسألـة هي أول ما يسـتعلم عنه بمجرد رؤيـة الأجنبي؛ إذ بمجرد وصولي إلى طنجـة استفسـروني شخصـياً). Ali Bay el Abbassi, Voyages d’Ali Bay el Abbassi en Afrique et en ) .(Asie pendant les annés 1803-1807, Paris, 1814, T. 1, p. 18

7- اسم الكتاب بالفرنسـية هو المشار إليه آنفاً في الهامش رقم 6؛ وهو الذي اعتمدناه في هذا البحث.

8- الطاهر أحمد المكي، (أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر)، مجلة **الفكر العربي**، العدد 51، يونيو 1988، ص188.

9- الرحالة الأوربيون الذين جاءوا بعده لم يكتشفوا إلا أخطاء قليلة، والرحالة الإنجليزي ريتشـارد بورتون (Burton)، الـذي جـاء بعـده بنصف قرن من الزمان، نسـخ عـدداً من

الصور والرسومات لموقع مكة، وأشار كثيراً إلى رحلة علي باي. انظر:

p117., L’exploration... op. cit,Kieman

10- الطاهر أحمد المكي، المقال السابق، ص192